الجزء الثامن والعشرون — سورة المنافقون

يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة
فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم
تعلمون ﴿٩﴾ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض
وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون
﴿١٠﴾ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل
ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴿١١﴾

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم
إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴿١﴾
اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا
يعملون ﴿٢﴾ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم
فهم لا يفقهون ﴿٣﴾ ۞ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم
وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل
صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿٤﴾

الحزب ٥٦

٥٥٤

معانى الكلمات :

ذروا البيع : اتركوه .

فانتشروا: فتفرقوا للتصرف فى حوائجكم.

ابتغوا : اطلبوا .

انفضوا : انصرفوا .

جنة : وقاية لأنفسهم وأموالهم

فطبع : فختم بسبب الكفر .

لا يفقهون : لا يعرفون حقيقة الإيمان .

يؤفكون : يصرفون عن الحق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر أهمية صلاة الجمعة والاستماع إلى خطبتها .

٢ ـ أن نتعرف على التوازن الذى يتسم به المنهج الإسلامى .

٣ ـ أن نعلم طريقة المنافقين فى مداراة ما فى قلوبهم من الكفر .

المحتوى التربوى :

يقول صاحب الأساس : « إن ذكر تشريع الجمعة وبعض ما يتعلق بها فى سياق سورة الجمعة يعطينا دلالات معينة منها:أن صلاة الجمعة وخطبتها ينبغى أن تحقق ما بعث من أجله محمد ﷺ، وأن تجنب هذه الأمة ما وقعت فيه بنو إسرائيل ، وفى ذلك درس لخطيب الجمعة وللمستمع ، هذا وقد ذكر فى الفقرة الأخيرة كل ما ينهض على أداء الجمعة ، ويبعد عن إهمالها كما ذكر مقدمة لذلك كل ما يبعث عليها ، وفى ذلك درس من دروس هذا القرآن ؛ إذ يجعل التكليف فى إطار يحمل على غاية الالتزام » .

وصلاة الجمعة هى الصلاة الجامعة التى لا تصح إلا جماعة ، وهى صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ويلتفوا ويستمعوا إلى خطبة تذكرهم بالله ، وهى عبادة تنظيمية على طريقة

الإسلام فى الإعداد للدنيا والآخرة فى التنظيم الواحد وفى العبادة الواحدة وكلاهما عبادة ، وهى ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية ، وقد وردت الأحاديث الكثيرة فى فضل هذه الصلاة والحث عليها والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب .

وتأتى الآية الأولى فتأمر المسلمين أن يتركوا البيع وسائر نشاط المعاش ـ بمجرد سماعهم للأذان ، وترغبهم فى هذا الانخلاع من شؤون المعاش والدخول فى الذكر فى هذا الوقت ، وترك البيع والإقبال إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم فى الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون ، ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله ، وهذا هو التوازن الذى يتسم به المنهج الإسلامى ، التوازن بين مقتضيات الحياة فى الأرض ، من عمل وكد ونشاط وكسب ، وبين عزلة الروح فترة عن الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر ، وهى ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقى والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى ، وذكر الله لابد منه فى أثناء ابتغاء المعاش ، والشعور بالله فيه هو الذى يحول نشاط المعاش إلى عبادة ، ولكنه ـ مع هذا ـ لابد من فترة للذكر الخالص ، والانقطاع الكامل ، والتجرد المحض .

ويعاقب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التى قدمت المدينة يومئذ ، وكانت التجارة لدحية بن خليفة قبل أن يسلم ، وكان معها طبل ، فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائما على المنبر إلا القليل منهم ، وفى الآية تلويح لهم بما عند الله وأنه خير من اللهو ومن التجارة ، وتذكير لهم بأن الرزق ما عند الله لمن توكل عليه ، وطلب الرزق فى وقته .

سورة المنافقون

تتضمن هذه السورة حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم ، وما فى نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين ، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب ، وتبدأ السورة بوصف طريقتهم فى مداراة فى قلوبهم من الكفر ، وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبى ﷺ هو رسول الله ، وحلفهم كذبا ليصدقهم المسلمون ، واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجنة يخفون وراءها حقيقة أمرهم ، ويخدعون المسلمين فيهم .

فهم كانوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان ، لا يقصدون بها وجه الحق إنما يقولونها للتقية ، وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين ، فهم كاذبون فى أنهم جاؤوا ليشهدوا هذه الشهادة ، فقد جاؤوا ليخدعوا المسلمين بها ، ويداروا أنفسهم بقولها ، ومن ثم يكذبهم الله فى شهادتهم بعد التحفظ الذى يثبت حقيقة الرسالة ، والتعبير يبادر بتثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين فى إقرارهم فهم لا يقرون الرسالة حقا ولا يشهدون بها

خالصى الضمير ، وقد كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم ، أو عرف عنهم كيد أو تدبير ، أو تفلت عنهم مقالة سوء فى المسلمين .

كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم ، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها ، ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم ، فصدوا أنفسهم وصدوا غيرهم مستعينين بتلك الأيمان الكاذبة ، وساء فعلهم فى اتخاذهم أيمانهم جنة وصدهم وغير ذلك من أعمالهم ، وهل أسوأ من الكذب للخداع والتضليل .

ويعلل حالهم هذه بأنهم كفروا بعد الإيمان ، واختاروا الكفر بعد أن عرفوا الإسلام ، وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه أو تذوق أو حياة ، وإلا فمن ذا الذى يذوق ويعرف ، ويطلع على التصور الإيمانى للوجود ، وعلى التذوق الإيمانى للحياة ، ويتنفس فى جو الإيمان الذكى ويحيا فى نور الإيمان الوضىء ، ويتفيأ ظلال الإيمان الندية ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوى المجدب الكنود ؟ من ذا الذى يصنع هذا إلا المطموس الكنود الحقود، الذى لا يفقه ولا يحس ولا يشعر بهذا الفارق البعيد .

ثم يرسم السياق لهم صورة تثير السخرية والهزء والزراية ، فتنصبهم تمثالا وهدفا للسخرية فى معرض الوجود ، فهم أجسام تعجب لا أناسى تتجاوب ، وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون ، فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة ، إن يتكلموا فكأنهم خشب وليسوا خشبا فحسب ، إنما هى خشب مسندة لا حركة لها ، ملطوعة بجانب الجدار ، وذلك فى الخلو عن الفائدة ، وهم فى توجس دائم وفزع دائم فهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء ، وهم يخشون فى كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف ، وبينما هم خشب مسندة ملطوعة إذا كان الأمر أمر فقه وروح وشعور بإيقاعات الإيمان ، إذا هم كالقصبة المرتجفة فى مهب الريح إذا كان الأمر أمر خوف على الأنفس والأموال .

وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الأول للرسول ﷺ وللمسلمين ، هم العدو الكامن داخل المعسكر ، وهو أخطر من العدو الخارجى الصريح منه الحذر أكثر من غيره ، والله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ صلاة الجمعة تدل دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية .

٢ ـ الشعور بالله فى ابتغاء المعاش يحول نشاط المعاش إلى عبادة .

٣ ـ المنافقون أشد خطراً على الإسلام والمسلمين من الكافرين والمشركين واليهود .

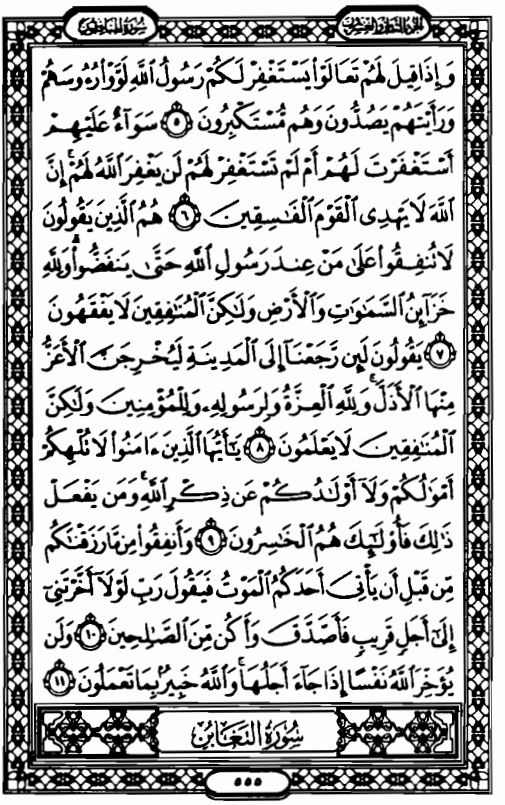
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ
وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ
لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ
خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ
مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ
أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي
إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠ وَلَن
يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١
سُورَةُ التَّغَابُنِ

معانى الكلمات :

لووا رؤوسهم: عطفوها إعراضا واستهزاء.

ينفضوا : يتفرقوا .

الأعز : الأشد والأقوى .

الأذل : الأضعف والأهون .

العزة : الغلبة والقهر .

تلهكم : تشغلكم وتصرفكم .

ذكر الله : عبادته وطاعته ومراقبته .

أخرتنى : أمهلتنى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على المنهج التربوى الإلهى وحكمته فى عدم إخراج المنافقين من الصف المسلم

٢ ـ أن نستشعر روعة الإيمان حينما يستقر فى قلب الإنسان وذلك فى موقف عبد الله بن عبد الله .

٣ ـ أن نعلم أن لواء الأعزاء لواء المؤمنين .

المحتوى التربوى :

يستطرد السياق فى وصف تصرفاتهم الدالة على دخل قلوبهم ، وتبييتهم للرسول ﷺ ، وكذبهم عند المواجهة ، وهى مجموعة من الصفات اشتهر بها المنافقون ، فهم يفعلون الفعلة ، ويطلقون القولة ، فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله ﷺ جبنوا وتخاذلوا وراحوا يقسمون بالأيمان يتخذونها جنة ، فإذا قال لهم قائل : تعالوا يستغفر لكم رسول الله ، وهم فى أمن من مواجهته لووا رؤوسهم ترفعا واستكبارًا ، وهذه وتلك سمتان متلازمتان فى النفس المنافقة ، وإن كان هذا التصرف يجىء عادة ممن لهم مركز فى قومهم ومقامهم ، ولكنهم هم فى ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة، فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ما داموا فى أمان من المواجهة ، حتى إذا تمت مواجهتهم كان الجبن والتخاذل والأيمان .

ومن ثم يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بما قضاه الله فى شأنهم على كل حال ، وبعدم جدوى الاستغفار لهم بعد قضاء الله، ويحكى طرفا من فسقهم ، الذى استوجب قضاء الله فيهم، وهى يتجلى فيها خبث الطبع ، وهى خطة التجويع التى يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان فى حرب العقيدة ومناهضة الأديان ، ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هى كل شىء فى الحياة كما هى فى حسهم فيحاربون بها المؤمنين ، ناسين الحقيقة البسيطة التى يذكرهم القرآن بها ؛ فمن خزائن الله فى السموات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا فى أرزاق المؤمنين ، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم ، فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين ، ويطمئن الله المؤمنين إلى أن خزائنه فى السموات والأرض هى خزائن الأرزاق للجميع ، والذى يعطى أعداءه لا ينسى أولياءه .

وننظر إلى الأحداث التى نزلت فيها الآيات فتجدنا مع السيرة ومع المنهج التربوى الإلهى ، ومع قدر الله العجيب فى تصريف الأمور، فهذا هو الصف المسلم يندس فيه المنافقون، ويعيشون فى حياة الرسول ﷺ قرابة عشر سنوات ، والرسول ﷺ لا يخرجهم من الصف ، ولا يعرفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قبيل وفاته ، وإن كان يعرفهم فى لحن القول بالالتواء والمداراة ؛ ذلك كى لا يكل الله قلوب الناس للناس، فالقلوب له وحده، وهو الذى يعلم ما فيها ويحاسب عليه ، فأما الناس فلهم ظاهر الأمر، كى لا يأخذوا الناس بالظنة، وكى لا يقضوا فى أمورهم بالفراسة ، وحتى حينما عرف الله نبيه ﷺ بالنفر الذين ظلوا على نفاقهم إلى أواخر حياته ، فإنه لم يطردهم من الجماعة وهم يظهرون الإسلام ويؤدون فرائضه .

وهذا الحادث الذى نزلت فيه تلك الآيات هو وحده موضع عبر وعظات جمة ، فهذا عبد الله ابن أبى ابن سلول لا يهدى الله قلبه للإيمان ، تقف دونه إحنة فى صدره أن لم يكن ملكًا على الأوس والخزرج ، وهذا ابنه عبد الله ﷺ نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع ، يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه ، ولكنه يكن له ما يكن الولد البار العطوف ، ويسمع أن رسول الله ﷺ يريد أن يقتل أباه هذا ، فيطلب من نبيه إن كان لابد فاعلًا أن يأمره هو بقتل أبيه ، وهو لابد مطيع وهو يأتيه برأسه ؛ كى لا يتولى ذلك غيره ، فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشى على الأرض فيقتل مؤمنا بكافر فيدخل النار .

يقول صاحب الظلال : « وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلب النظر فى هذا الموقف الكريم ، روعة الإيمان فى قلب إنسان ، وهو يعرض على رسول الله ﷺ أن يكل إليه أشق عمل على النفس البشرية ـ أن يقتل أباه ـ وهو صادق النية فيما يعرض ، يتقى به ما هو أكبر فى نظره وأشق ، وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر فيدخل النار ، وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشرى تجاه أبيه ، وهو يقول : فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وهو يطلب من نبيه وقائده أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج ، لا بأن يرد أمره أو يغيره ، ولكن بأن يكل إليه هو أن يأتيه برأسه والرسول ﷺ يرى هذه

النفس المؤمنة المحرجة ، فيمسح عنها الحرج فى سماحة وكرامة فيقول : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

ونقف أمام مشهد الرجل المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أبى وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل ، تصديقا لمقاله هو : ليخرجن الأعز منها الأذل ؛ ليعلم أن رسول الله هو الأعز ، وأنه هوالأذل ، ويظل يقفه حتى يأتى رسول الله ﷺ فيأذن له ، فيدخلها بإذنه ، ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل ، ويضم الله سبحانه رسوله والمؤمنين إلى جانبه ، ويضفى عليهم من عزته ، وهو تكريم كبير لا يكرمه إلا الله ، وأى تكريم بعد أن يوقف الله ـ سبحانه ـ رسوله والمؤمنين معه إلى جواره ، ويقول : ها نحن أولاء ، هذا لواء الأعزاء ، وهذا هو الصف العزيز .

وصدق الله ، فجعل العزة صنو الإيمان فى القلب المؤمن ، العزة المستمدة من عزته تعالى ، العزة التى لا تهون ولا تهن ، ولا تنحنى ولا تلين ، ولا تزايل القلب المؤمن فى أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان ، فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة ، والمنافقون لا يعلمون .

ويوجه النداء للمؤمنين حتى يبرؤوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين ، ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد ، فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضيء ، والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب ، ويدرك غاية وجوده ، ومن يغفل عن ذكر الله فقد خسر نفسه ومن خسر نفسه فقد خسر كل شيء مهما يملك من مال ومن أولاد .

ويلمسهم فى موضوع الإنفاق لمسات متنوعة؛ فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذى فى أيديهم، فهو من عند الله الذى آمنوا به والذى يأمرهم بالإنفاق قبل أن يأتى الأجل ، فيترك كل شيء وراءه لغيره ، وينظر فلا يجد أنه قدم شيئا لنفسه ، وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران ، ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتصدق وليكون من الصالحين ، وأنى له هذا ؟ ولن يؤخر الله الأجل إذا جاء ، والله مطلع على الأعمال ، فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المؤمن لا تشغله الأموال ولا الأولاد عن طاعة الله وعبادته ، وهو ينفق مما أعطاه الله فى وجوه الخير .

٢ ـ على المؤمن أن يبادر بأعمال الطاعات قبل أن يجيء الأجل فيندم على تفريطه حيث لا ينفع الندم .

٣ ـ العزة : هى معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وهى من الصفات التى يتحلى بها المسلم فلا يذل نفسه إلا لله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ
وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ
فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى
اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ
يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

معانى الكلمات :

له الملك : التصرف المطلق فى كل شىء .

بالحق : بالحكمة البالغة .

المصير : المرجع .

وبال أمرهم : سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا .

وتولوا : أعرضوا .

والنور : القرآن .

ليوم الجمع : ليوم القيامة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حقيقة الصلة بين الخالق سبحانه ـ وهذا الكون الذى خلقه .

٢ ـ أن نتعرف على حقيقة بعض صفات الله وأسمائه الحسنى وأثرها فى الكون وفى الحياة الإنسانية .

٣ ـ أن نعلم مصير الغابرين من المكذبين بالرسل والبينات المعترضين على بشرية الرسل .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق فيشير إلى أن كل ما فى السموات والأرض متوجه إلى ربه ، مسبح بحمده ، وقلب هذا الوجود مؤمن ، وروح كل شىء فى هذا الوجود مؤمنة ، والله مالك كل شىء ، وكل شىء شاعر بهذه الحقيقة ، والله محمود بذاته ممجد فى مخلوقاته ، فإذا وقف الإنسان وحده فى خضم هذا الوجود الكبير كافر القلب جامد الروح متمرداً عاصيا ، لا يسبح لله ولا يتجه إلى مولاه ، فإنه يكون شاذاً بارز الشذوذ ، كما يكون فى موقف المنبوذ من كل ما فى الوجود ، والله سبحانه صاحب القدرة الطليقة التى لا تتقيد بقيد ، وتحقق ما تريد بلا حدود ولا قيود .

وهو الذى خلق الإنسان ، وأودع فيه إمكان الاتجاه إلى الكفر ، وإمكان الاتجاه إلى الإيمان ، وتميز بهذا الاستعداد المزدوج من خلق الله ، والله رقيب على هذا الإنسان فيما يعمل ، بصير

بحقيقة نيته واتجاهه ، فليعمل إذن وليحذر هذا الرقيب البصير ، وتأتى الإشارة إلى الحق الأصيل الكامن فى طبيعة الوجود ، الذى تقوم به السموات والأرض ، وصنعة الله المبدعة فى كيان المخلوق الإنسانى ، وتقرر رجعة الجميع إليه فى نهاية المطاف ، وتأتى الإشارة إلى تصوير العلم الإلهى المحيط بكل شىء ، المطلع على سر الإنسان وعلانيته ، وعلى ما هو أخفى من السر من ذوات الصدور الملازمة للصدور ، واستقرار هذه الحقيقة فى القلب المؤمن يفيده المعرفة بربه ، فيعرفه بحقيقته .

يقول صاحب الأساس : « قررت الآيات أموراً وأقامت حججاً :

١ ـ تسبيح ما فى السموات والأرض لله .

٢ ـ ملكية الله عز وجل للأشياء كلها .

٣ ـ أن كل نعمة ظاهرة وباطنة هى من الله عز وجل .

٤ ـ اتصاف الله عز وجل بالقدرة المطلقة .

٥ ـ انقسام البشر إلى قسمين كبيرين مؤمنين وكافرين،وذلك من مظاهر اتصافه بكمال القدرة.

٦ ـ اتصاف الله عز وجل بصفة البصر التى تحيط بالظواهر والبواطن .

٧ ـ أن الله عز وجل هو وحده خالق السموات والأرض وأن خلقه لهما كان لحكمة وليس عبثا .

٨ ـ وأن تصويره البشر على ما هم عليه أثر حكمته .

٩ ـ وأن إلى الله المرجع .

١٠ ـ وأن علمه محيط بما فى السموات وما فى الأرض وأنه يعلم ما يسره البشر وما يعلنونه ، وأنه عليم بما فى الصدور .

١١ ـ وأنه عذَّب الكافرين السابقين ؛ بسبب كفرهم برسل الله عز وجل ومعجزاتهم ، وبسبب استكبارهم أن يهديهم البشر ، وزعمهم أن الله لن يبعثهم وهذا يقتضى نفى الحكمة الإلهية » .

ثم يذكر السياق بمصير الغابرين من المكذبين بالرسل والبينات ، المعترضين على بشرية الرسل ، كما كان المشركون يكذبون ويعترضون على بشرية الرسول ﷺ ، ويكفرون بما جاءهم به من البينات ، والخطاب هنا للمشركين ، وهو تذكير لهم بعاقبة المكذبين وتحذير لهم من مثل هذه العاقبة ، والاستفهام قد يكون لإنكار حالهم بعد ما جاءهم من نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا عاقبة أمرهم ، وقد يكون للفت أنظارهم إلى هذا النبأ الذى يقصه عليهم ، وهم كانوا يعرفون ويتناقلون أنباء بعض الهلكى من الغابرين ، كعاد وثمود وقرى لوط ، ويضيف القرآن إلى المعروف من مآلهم فى الدنيا ما ينتظرهم هنالك فى الآخرة من العذاب الأليم .

ثم يكشف عن السبب الذى استحقوا به ما نالهم وما ينتظرهم ؛ فقد كانت رسلهم تأتيهم بالحجج والدلائل والبراهين ، فاستبعدوا أن تكون الرسالة فى البشر ، وأن يكون هداهم على

يدى بشر مثلهم ، فكذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ، واستغنى الله عنهم وعن إيمانهم وعن طاعتهم ، وما هو ـ سبحانه ـ بمحتاج إلى شىء منهم ولا من غيرهم ، فهو الغنى الحميد .

ثم يحكى السياق تكذيب الذين كفروا بالبعث ، ومنذ البدء يسمى مقالة الذين كفروا عن عدم البعث زعما ، فيقضى بكذبه من أول لفظ فى حكايته ، ثم يوجه الرسول ﷺ إلى توكيد أمر البعث بأوثق توكيد ، وهو أن يحلف بربه، والله أعلم منهم بعملهم حتى لينبئهم به يوم القيامة ، وذلك يسير على الله فهو يعلم ما فى السموات والأرض ، ويعلم السر والعلن ، وهو عليم بذات الصدور، وهو على كل شىء قدير، وفى ظل هذا التوكيد الوثيق يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله، والنور الذى أنزله مع رسوله ، وهو هذا القرآن ، وهو هذا الدين يبشر به القرآن ، وهو نور فى حقيقته بما أنه من عند الله والله نور السموات والأرض وهو نور فى آثاره إذ ينير القلب فيشرق بذاته ويبصر الحقيقة الكامنة فيه هو ذاته ، ويعقب على دعوتهم إلى الإيمان ، بما يشعرهم أنهم مكشوفون لعين الله لا يخفى عليه منهم شىء.

وبعد هذه الدعوة يعود إلى استكمال مشهد البعث الذى أكده لهم أوثق توكيد ، فأما أنه يوم الجمع فلأن جميع الخلائق فى جميع الأجيال تبعث فيه ، كما يحضره الملائكة وعددهم لا يعلمه إلا الله ، وفى مشهد من هذا الجمع يكون التغابن ، وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ، وحرمان الكافرين من كل شىء منه ثم صيرورتهم إلى الجحيم ، فهما نصيبان متباعدان .

قال القاسمى : « قال القاشانى : أى ليس التغابن فى الأمور الدنيوية ، فإنها أمور فانية سريعة الزوال ، ضرورة الفناء ، لا يبقى شىء منها لأحد ، فإن فات شىء من ذلك أو أفاته أحد ولو كان حياته فإنما فات أو أُفِيتَ ما لزم فواته ضرورة ، فلا غبن ولا حيف حقيقة ، وإنما الغبن والتغابن فى إفاتة شىء لو لم يفته لبقى دائما ، وانتفع به صاحبه سرمداً ، وهو النور الكمالى والاستعدادى ، فتظهر الحسرة والتغابن هناك فى إضاعة الربح ورأس المال فى تجارة الفوز والنجاة كما قال : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (البقرة) ، فمن أضاع استعداده ونور فطرته كان مغبونا مطلقا ، كمن أخذ نوره وبقى فى الظلمة ، ومن بقى نور فطرته ولم يكتسب الكمال اللائق به الذى يقتضيه استعداده أو اكتسب منه شيئا ولم يبلغ غايته كان مغبونا بالنسبة إلى الكامل التام،فكأنما ظفر بذلك الكامل بمقامه ومرامه،وبقى هذا متحيزاً فى نقصانه» .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على القلب أن يعيش فى خشية وارتقاب ، وطمع ورجاء ، وأن يمضى فى الحياة معلقا فى كل حركة وكل خالجة باله بالله ، شاعراً بقدرته وهيمنته .

٢ ـ كرم الله الإنسان وأودعه القدرة على التمييز والقدرة على الاختيار وعليه أن يبصر اتجاهه

٣ ـ ليس التغابن فى الأمور الدنيوية ، وإنما التغابن فى إفاته شىء لو لم يفته لبقى دائما ، وانتفع صاحبه به سرمداً وهو ثواب الآخرة .